

الفصل الرابع

الفترة البصرية الثانية

بين ماضى البصرة وحاضرها - حلقة الأصمعى -
طلابه فيها - تقدم العمر به - بعض صفاته - تخرجه
من تفسير القرآن والحديث - ملاحظه الخلقية والخلقية .

بين ماضى البصرة وحاضرها :

رجع الأصمعى إلى البصرة بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكى سنة سبع وثمانين ومائة ،
وحرى بنا ونحن نعود إلى البصرة مرة أخرى أن نعقد مقارنة وجيزة بين البصرة فى ماضيا ،
وبينها يوم عاد إليها الأصمعى .

كانت البصرة من أوائل مدن العراق التى تعددت فيها التزعات الفكرية ، كانت مرفأ هذه
البلاد ، تأتى إليها تاجر السفن من شتى بلاد المشرق ، وينزل بها من التجار والمسافرين ما لا
حصر للملهم وأجناسهم ، ولقد تهيأت الأسباب للثقافة اليونانية أن تأخذ مكانها فى هذا
الإقليم ، ثم أتيج لها أن تسود الثقافات الكلدانية والهندية الوافدة من الشرق .

ولا تكاد البصرة الإسلامية تختلف فى طريقة تفكيرها وماضيا : فعامل التجارة الذى
حقق الواقعية ظل على ما هو عليه ، وبقيت البصرة تصطنع التجارة كما كانت بالأمس ،
وطريقة التفكير العقلى الذى صدر عن مفكرى المسلمين يعد استمراراً لهذا اللون من الثقافة
اليونانية المتميزة بالطابع العقلى المنتظم .

كان النظام يقرأ كتب أرسطو ويفهمها ، ويرد على بعض ما جاء فيها^(١) ، واتصل
أبو الهذيل العلاف بالفلسفة اليونانية ، وأعانتة دراسته لها على تنظيم مبادئ المعتزلة (وامتلأت

(١) النبى والأمل ٢٩

حياته بالمناظرة والجلول مع الزنادقة والشكاك والمجوس والثنوية ، ورووا أنه أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل^(٢) .

وكان للموالى دور كبير فى إعلاء شأن البصرة : بعضهم أقبل على هذا الدين بنفس مطمئنة ، وشارك فى العلوم الإسلامية كالحسن البصرى ، وابن سيرين ، وهما من سبى هذا الإقليم ، وبعضهم أقبل على العلوم الإسلامية تحقيقاً للمجد الأدبى ، أو كرد فعل لتيقظ الترعات القومية .

وفى البصرة - وبسبب هذه الأجناس المختلفة التى كانت تعيش فيها - دعت اللواعى إلى تعلم العربية وتقنين النحو : ويروى فى هذا أن أبا الأسود الدؤلى جاء إلى زياد بالبصرة فقال : إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم ، وتغيرت ألسنتهم ، أفأذن لى أن أضع للعرب كلاماً يعرفون ، أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير (توفى أبانا وترك بنونا !) فقال زياد : توفى أبانا وترك بنونا ! ادع لى أبا الأسود ، فقال : ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم^(٣) .

ويقال : إن السبب فى ذلك - أنه مر بأبى الأسود - سعد - وكان رجلاً فارسياً من أهل بوزنجان كان قد قدم البصرة مع جماعة من أهله ، فدنوا من قدامة بن مظعون الجمحى ، فادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وأنهم بذلك من مواليه ، فرسعد هذا بأبى الأسود وهو يقود فرسه قال : مالك يا سعد لا تركب ؟ قال : إن فرسى ضالماً (يريد : إن فرسى ظالم) فضحك مع بعض من حضره ، قال أبو الأسود : هؤلاء الموالى قد رغبوا فى الإسلام ، ودخلوا فيه ، فصاروا لنا إخوة فلو علمناهم الكلام !^(٤) .

ظلت البصرة تحتل المكان الأول فى العراق حتى بعد ظهور الحركة العلمية بالكوفة ، ولكنها لم تستطع أن تحتفظ طويلاً بهذه المكانة بعد قيام الدولة العباسية واتخاذها بغداد عاصمة لها . صحيح أن البصريين حاولوا التشبث بمكانهم ومكانتهم العلمية فى البصرة ، ووجدوا فيها غنى عن السلطان ، بل ناءوا والدعوة العباسية ، وانضم أبو محمد الزيدى إلى إبراهيم بن عبد الله الذى اتخذ البصرة مكاناً يدعو فيه لأخيه محمد بن عبد الله بن الحسن ، وشارك بشار بن برد فى

(٢) ضحى الإسلام ٣ : ٩٩ .

(٣) أخبار النحويين البصريين ١٣ .

(٤) أخبار النحويين البصريين ١٣ ، ١٤ .

هذا التأييد بقصيدة هاجم فيها أبا جعفر المنصور قال فيها :
 أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
 ووجه سليمان بن علي من الأهواز إلى الخليل بن أحمد يلتمس منه الشخوص إليه وتأديب
 ولده ويرغبه ، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال : ما عندى غيره ، وما دمت
 أجدّه فلا حاجة لى فى سليمان ! فقال الرسول : لماذا أبلغه عنك ؟ فأنشأ يقول :

أبلغ سليمان أنى عنك فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
 سخى بنفسى أنى لا أرى أحداً يموت هزلاً ، ولا يبنى على حال^(٥)
 وكان المتكلمون وأصحاب الفرق يجلون فى البصرة مجالاً واسعاً لنشر ثقافتهم وآرائهم وإن
 اختلفت مع ذلك أهواؤهم وميولهم ، وربما استراحوا إلى بعد البصرة عن مقر الخلافة ،
 فتحررت عقولهم من كثير من القيود السياسية ، ولم يشذ عن ذلك أصحاب اللغة وأهل
 العربية ، ولكن قيام الدولة العباسية واتخاذها بغداد عاصمة لها قد فكك هذا التماسك فى
 البصرة ، وبدأ القصر يستوى بعض الناس يلتمسون معاشهم فى عاصمة الدولة : فذهب
 أبو نواس ، والموصلى ، والعباس بن الأحنف ؛ كما تقرب اليزيدى إلى العباسيين متوسلاً بيزيد
 بن منصور خال المهدي بعد أن فشلت ثورة إبراهيم بن عبد الله ، فرأيناه فى مجلس المهدي قبل
 أن يستخلف ، ثم ما لبث أن صار مؤدباً للمأمون ، ومجالساً للرشد .

وفى عهد الرشيد - كان من مظاهر الترف - هذه المجالس التى تعددت أسمائها ، ومن بينها
 مجالس العلم والسر ، وذهاب الأصمعى وأنى عبيدة بدعوة من القصر واختيار أولها - هو فى
 الحقيقة تعبير عن الأزدهار الذى ساد بغداد ، والذى كان له أكبر الأثر فى التقليل من شأن
 البصرة .

هذه لمحة موجزة عن البصرة ، فلما عاد إليها الأصمعى راجعاً من بغداد كانت هذه الصورة
 قد تغيرت معالمها ، فقد توفى أصحاب الصف الأول من أمثال أبي عمرو بن العلاء ، والخليل
 ابن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وخلت من اليزيدى ، أما أصحاب الصف (الثانى) فقد
 عانى بعضهم تعب الكبر والشيخوخة ، ولم يطل الوقت حتى عاد المأمون إلى العراق ، وجمع
 إلى بطانته رجال العلم ، وألان جانبه للمعتزلة ، فشدوا رحالهم إلى بغداد ، وبهت صورة
 البصرة بعد أن كانت العاصمة العلمية للعراق .

(٥) أخبار النحويين البصريين ٣١ .

حلقة الأصمى :

عاد الأصمى إلى البصرة ، وقد اشتهر أمره ، وذاع صيته ، وغنم علماً غريزاً اكتسبه بعد رحلته إلى بغداد ، وقد أتاحت له حياته الناعمة فيها استعادة ما حصّله ، وزاد فيه . فقال فيه ثعلب (قدم الأصمى بغداد وأقام فيها مدة ، وخرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة) .

عقد حلفته بالبصرة مرة أخرى ، وجلس إليه أصحابه وطلابه ، وجاء إليه وافلون من أقاصى البلاد . بعضهم يطلب العلم حقاً ، وبعضهم جاء ليرى من الأصمى وقد دفعه الاستطلاع إلى استكناه أمره ، فأعد له من مشكلات الأمور ومعضلاتها ما يمتحنه بها . . يقول أبو عثمان الاثاناندانى : كنا يوماً فى حلقة الأصمى إذ أقبل أعرابى يرقل فى الخروز فقال : أين عميدكم ؟ فأشرنا إلى الأصمى ؛ فقال : ما معنى قول الشاعر :

لا مال إلا العطاف توزره أم الثلاثين وابنة الجبل
لا يرتقى التّرّ فى ذلّذله ولا يعدى نعليه عن بلل
قال : فضحك الأصمى ، وأتم القصيدة ، وأتم بدأ فى شرحها ، فانصرف الأعرابى وهو يقول : تالله ما رأيت كالיום عضلة .

ولا يكاد ينصرف هذا الرجل السمع المعترف بفضل الأصمى ، المعجب بعلمه حتى يفد عليه أعرابى متحد متعجرف ، وقف على حلفته قائلاً : أيكم الأصمى ؟ قال : أنا ذاك ؛ قال : أنت الذى يزعم هؤلاء النفر أنك أنقبتهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمى : فيهم من هو أعلم منى ، ومن هو دونى ؛ قال : أفلا تشدوننى من شعر أهل الحضر ؛ حتى أقيسه على شعر أصحابنا ؟ فأنشده الأصمى شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم ، أنت البحر إن جاء وارد وليث إذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهندوانى إن عدتْ حوادثُ من حرب يعب عابها
وما خلقت أكرومة فى امرئ له ولا غاية إلا إليك مآبها
كأنك ديبانٌ عليها موكّل بها وعلى كقبك يجرى حسابها
إليك رحلتنا العيس إذ لم نجد لها أخا ثقة يرجى لديه ثوابها

فتبسم الأعرابي وهز رأسه ، فظنوا أن ذلك لاستحسانه الشعر ثم قال : يا أصمعي ، هذا شعر مهلهل خلق النسيج خطؤه أكثر من صوابه يغطي عيوبه حسن الروى ورواية المنشد : يشبهون الملك إذا امتدح بالأسد ، والأسد أنجز شتم المنظر وربما طرده شزيمة من إماننا وتلاعب به صبياننا ويشبهونه بالبحر ، والبحر صعب على من ركبه ، مر على من شربه وبالسيف وربما خان في الحقيقة ونبا عن الضربة ألا أنشدتني كما قال صبي من حيننا ؟ قال الأصمعي . وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشد :

إذا سألت الورى عن كل مكرمه لم يعز إكرامها إلا إلى الهول
ففى جواد أذاب المال نائله فالنيل يشكر منه كثرة النيل
الموت يكره أن يلقى منيته فى كرهه عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبى الشمس كاسفة أو زاحم الصم ألجأها إلى الميل
أمضى من النجم إن نابتة نائبة وعند أعدائه أجرى من السيل
لا يستريح إلى الدنيا وزينتها ولا تراه إليها صاحب الذيل
يقصر المجد عنه فى مكارمه كما يقصر عن أفعاله قوى
قال أبو النصر ، وكان فى حلقة الأصمعي : فأهتتنا والله ما سمعنا من قوله ، وبعد أن تأنى الأعرابي عاد فقال : يا أصمعي : ألا تنشدنا شعراً ترتاح إليه النفس ، ويسكن إليه القلب فأنشد لعدى بن الرقاع العاملى :

وناعمة تجلو بعود أراكة مؤشرة يسى المعانق طيها
كان بها خمرأ بماء غمامة إذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها
أراك إلى نجد تحن وإننا مئى كل نفس حيث كان حبيبها
فتبسم الأعرابي ، وقال : يا أصمعي ، ما هذا بدون الأول ولا فوقه ، ألا أنشدتني كما قلت ؟ قال الأصمعي ، وماذا قلت جعلت فداك فأنشد :

تعلقتُها بكرةً وعُلقتُ حبها فقلبي عن كل الورى فارغ بكر
إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها وتكفيك ضوء البدر إن حجب البدر
وما الصبر عنها إن صبرت وجدته جميلاً - وهل فى مثلها يحسن الصبر
وحسبك من خمر يفوتك ريقها ووالله ما من ريقها حبك الحمر
ولو لم يكن للبدر ضدًا جمالها وتفضله فى حسنها - لصفا البدر

قال أبو النصر : قال الأصمعي : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المدى في رفاق الأكباد
قال : وأقام عندنا شهراً فجمع له الأصمعي خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا في الحين بعد
الحين حتى مات الأصمعي ، وتفرق أصحابنا^(٦) .

وفي هذه الفترة ظهر رجال الطبقة التالية : أبو محمد عبد الله بن محمد التوزي ، وأبو نصر
أحمد بن حاتم الباهلي ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، وأبو الفضل العباس بن الفرغ
الرياشي وهم الذين أخذوا عن الأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ، فبرز كل في ناحية . يقول
العباس بن الفرغ : تحفظت كتب أبي زيد ودرسها إلا أني لم أجالسه مجالسني للأصمعي ،
وأما كتب الأصمعي فإني حفظها لكثرة ما كانت تتردد على سمعي لطول مجالسني له . قال :
وكنيت أقرأ على أبي زيد ، ولعل حفظي كان قريباً من حفظه^(٧) ، وهكذا نشأوا أيضاً على
تفاوت كان المازني في الإعراب ، وأبو حاتم في الشعر والرواية ، وكان الرياشي في الجميع^(٨) .
ظل المسجد عامراً بهؤلاء العلماء حتى تقدمت بهم السنون ، وعبر عن ذلك التوزي
بقوله : (خرجت إلى بغداد فحضرت حلقة الفراء ، فلما أنس بي قال : ما فعل أبو زيد
الأنصاري ؟ قلت ملازم لبيته وحلقته في المسجد وقد أسن ؛ قال : ذلك أعلم الناس باللغة
وأحفظهم لها ؛ ثم قال : وما فعل أبو عبيدة ؟ قلت ملازم لبيته ومسجده على سوء خلقه !
قال : أما أنه أكمل القوم وأعلمهم بأيام العرب ومذاهبها ؛ ثم قال : وما فعل الأصمعي ؟
قلت : ملازم لبيته ومسجده ؛ قال : ذاك أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة وأحضرهم حفظاً ما
فعل الأخفش)^(٩) .

وإذا كان الأصمعي خَفَّفَ عن نفسه مشاق الذهاب إلى المسجد وعبء الجلوس إلى
طلابه - فإن الواقدين منهم لم يكونوا يركنون إلى الانتظار ، وإنما كانوا يختلفون إلى منزله كما
ذكر التوزي عن وفد خراسان الذي جاء إلى بابه يطريه ويقرّظه ويقول له : (خراسان يرجف
بعلم البصرة وعلمك خاصة) .

(٦) زهر الآداب ٢ : ١٠١ .

(٧) طبقات الزبيدي ١٠٤ .

(٨) طبقات الزبيدي ١٠٥ .

(٩) المزهر ٢ : ١٩٣ ط السعادة و ٢ : ٤٠٤ ، ط الحلبي .

من صفات الأصمى :

بقى علينا ونحن نحاول تعميق ملامح الأصمى وإبراز صورته أن تلقى الضوء على الجوانب الهامة التي امتاز بها هذا الرجل وخالف بها أقرانه : كانت بعض هذه الملامح طبيعة فيه لا يقصد بها جنوحاً إلى الانفراد ، ولا رغبة في التزيد ، بل كان بعضها كالبخل والانزواء مما يأنف الإنسان العادى أن يذكر بها ، ولكنها كانت بالنسبة لنا مفاتيح ندخل بها إلى مغالق هذا الرجل ، ونكتشف بها بعض جوانبه التي أجملنا الحديث عنها ، وأولى هذه الملامح ، وأكثرها تفسيراً لسلوكه هي :

تخرجه من تفسير القرآن والحديث :

لحنا أكثر من مرة ميل الأصمى إلى التوقف عن الكلام فيما له صلة بالناحية الروحية . كان يتخرج من تفسير القرآن والحديث ، وإذا سئل في شيء من ذلك قال : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أى شيء هو وكان يقف تماماً عندما تعترضه لغة لها نظير أو اشتقاق في القرآن : امتنع عن إجابة أبي حاتم عن معنى الرِّبَّة لأن في القرآن (رِبِّيون) ، وفي سري وأسرى لأن في القرآن (فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ) وفي عصفت وأعصفت لقوله تعالى (ربيع عاصف) وفي سحته وأسحته لأنه قرئ (ليسحتكم) وفي سلك الطريق وأسلكه لأن في القرآن (ما سلككم في سقر)^(١٠) .

وكان على حذر عند نظره في تفسير الحديث ، إذ كان يذهب مذهب المتأتمنين المتحرجين : يقول نصر بن على : سمعت الأصمى يقول لعفان وجعل يعرض عليه شيئاً من الحديث : اتق الله يا عَفَّان ولا تغير حديث رسول الله ﷺ^(١١) وهو يتذم أن أقلت لسانه . ففسر كلمة واحدة كما يقول نصر بن على وقد سأله سائل عن معنى قول الرسول ﷺ (جاءكم أهل اليمن وهم أجمع نفساً) ما معنى أجمع ؟ قال : يعنى أقتل . ثم أقبل على نفسه كاللأثم لها ، فقلت له ، لا عليك فقد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (فلعلك باخع نفسك) : أى قاتل نفسك ، فكأنه سُرِّي عنه .

(١٠) الزمر ٢ : ٣٢٦ .

(١١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

ولما كتب أبو عبيدة كتابه (مجاز القرآن) ثار عليه نفر كبير في الكوفة والبصرة :
أما في الكوفة فقد ترعم الفراء هذه الثورة ، وقال كما يحكى ياقوت : لو حُمِلَ إلى
أبو عبيدة لضربه عشرين على كتاب المجاز .

وأما في البصرة فكان صاحب هذه الحملة عليه هو « أبو سعيد عبد الملك بن قريب
الأصمعي » وكان أساس هذه الحملة أنه يُفسّر القرآن برأيه ، ولم تكن العداوة بين الرجلين سبباً
لهذه الحملة ؛ وإنما كانت مظهرًا من مظاهر الاختلاف بين النزعة العقلية والنزعة النقلية ،
ولقد كان أبو عمر الجرمي يأخذ على أبي عبيدة ؛ كما يأخذ على الأصمعي ، فتصادف أن حَمَلَ
أبو عمر كتاب مجاز القرآن ، وذهب إلى الأصمعي ، فقال له : هاته ؛ فتركه عنده ، ونظر فيه
حتى انتهى إلى آخره ، فلما رجع أبو عمر قال له : يقول أبو عبيدة في أول كتابه (أَلَمْ . ذلك
الكتاب لا ريب فيه) : أى لا شك فيه ، فإى يدريه أن الرب هو الشك ؟ قال أبو
عمر : أنت فسرتَ لنا في شعر الهذليين :

فقالوا تركنا القوم قد حصروا به فلا ريب أن قد كان ثم لحم
قال أمسك ولم يقل شيئاً ، ورد الكتاب (١٢) .

ولا نستطيع أن نمر سراعاً أمام هذه الظاهرة ونخرج من الخوض في مسائل التفسير للقرآن
والحديث دون أن نُقلِّبها على الوجوه المختلفة ، وتساءلنا - هل كان ذلك عن تقصير في تحصيل
علوم القرآن والحديث ؟ إن النصوص تخالف ذلك تماماً ، وتشير إلى أنه قرأ القرآن على
أبي عمرو بن العلاء وهو من رجال القراءات ؛ كما تؤكد أنه لازم أستاذه هذا سنين طويلة شمر
فيها ونبيغ ، ثم صاحب بعده أبا عمرو عيسى بن عمر الثقفي ، ولو أن الرجل كان صاحب نحو
فإن أمره اشتهر في ناحية القراءات ، وروى عنه القراءة لقيف من الأعلام منهم الأصمعي ،
ولما توفي عيسى بن عمر سنة تسع وأربعين ومائة لازم الأصمعي أحد أفذاذ القراء وهو أبو روم
نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، وأصحاب القراءات يدركون معاني القرآن ووجوه تفسيره .
وفي الحديث ؛ نراه يلازم أئمة من أمثال شعبة بن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ، بل أخذ
عن الأصمعي نفسه : مالك ، وابن معين ، ونصر بن علي ، وعمر بن شبة ، ذكر ذلك
الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي صاحب تذهيب الكمال ، وأمثال هؤلاء الذين
لهم بضاعتهم النافقة ، وعلمهم الواسع ، والذين يعتبرون فيه أفذاذاً - هم شيوخ الأصمعي ،

وكفاه بذلك شهادة على تمكنه من المعرفة بالقرآن والحديث ، وجاز لنا أن نقول : إن سكوته عن الخوض في تفسير القرآن والحديث لم يكن إلا تَجَنُّباً لما يميز المجتمع الثقافي في عصره من آراء كلامية في هذا الموضوع ، وقد رأينا أن أكثر أصحاب هذين العلمين يفضلون الأراضى المقلسة في الحجاز ، ويتعدون عن العراق الذي اشتهر بالمركة الكلامية ، والأصمعي ينصب نفسه حُجَّةً في اللغة ومرجعاً يقصده من شاء ، لا يصدده عنه شهرة في الانحياز إلى مبدأ معين ، ولا يعرضه ذلك الانحياز إلى سخط الساخطين من العامة أو من رجال الحكومة .

والفرق بين الأصمعي هنا ، ورجل كالجاحظ باعتباره رجلاً من المتكلمين واضح في أن الأصمعي كان حريصاً على طول الخط ، أما الجاحظ فلم يلجأ إلى الانزواء والاختفاء من المجتمع اختفاء يكاد يكون نهائياً إلا بعد البطش بالمعتزلة والتنكيل بأحمد بن أبي دؤاد الذي قتل حرَقاً ، فلما سئل الجاحظ عن تخليه وانزوائه أجاب على طريقته الساخرة : خشيت أن أكون ثانياً لثنتين إذ هما في التور .

ولا يفوتنا أن نشير إلى الفرق في طبيعة الثقافة بين الأصمعي والجاحظ . فالجاحظ لم يكن راويةً ، ولم يكن محدثاً ، ولا فقيهاً ولا قارئاً للقرآن ، ولا صاحبَ مذهبٍ في التفسير ، وإنما كان أديباً يجمع مزايا الأديب الواسع الثقافة في عصره ، وفي أكمل صورة يفهمها ذلك العصر للثقافة ، كان آخذاً بطرف من فكاهات الأعراب ، وبلاغات الخطباء ، ومنتقيات الشعر ، وكان دارساً لعلوم الهند ، وفلسفة اليونان ، وأساطير الفرس ، فلم يكن إذن يعلم الناس نصوصاً متقاة محققة المتون والأسانيد ، ولم يكن يحمل إليهم تراثاً قديماً لا يستطيع أن يتصرف فيه بزيادة ولا نقصان ، وإنما كان الناس يطلبون منه أن يفكر ، وأن يتكلم ويكتب ، فيكون فهمه وابتكاره نتيجة هضم هذه الثقافات جميعاً . ورجل هذا شأنه كان لابد أن يكون ذا رأى فيما يشغل بال الناس من مشاكل ، وهكذا اختار الاعتزال ، المذهب الذي يرتكز على العقل أكثر من ارتكازه على النقل ، ويستفيد بمنطق أرسطو وجدل الأديان التي كانت سائدة في فارس والهند وغيرهما ، ومع كل هذا انزوى واختفى من المجتمع كراهة التأويل وخوف التور .

أما الأصمعي فكان كما قلنا راويةً يؤدي للناس أداءاً أميناً تراث الأقدمين في نقطة معينة محدودة هي لغة العرب ، وقد رأى ألا يزج بنفسه في مضمار التحرّج ، ومن حوله الأحزاب والطوائف كلٌ يفسر وينظر في الحديث على ضوء مذهبه هو ، وأعتقد أنه كان إلى جانب خوف

الأصمعي من مشاكل الدنيا نفسٌ متحرّجة تخشى الله من مجرد الشك في تفسير الحديث أو الآية من القرآن الكريم .

أما عن ملامحه الخلقية والخلقية - فلقد كان الأصمعي صورةً واضحة من أستاذه أبي عمرو بن العلاء من حيث الثقة في الرواية والصدق في الخبر . كان أبو عمرو يتحرّج من الكذب ، ولا يقول إلا عن يقين وثبت حتى أحرق في أخريات أيامه ما وضع من كتب خشية أن يكون فيها غير الصحيح ، فيحمل وزر ما كتب وكذلك كان الأصمعي : فإنه وإن لم يحرق كتبه - كان يأمر ابن أخيه عبد الرحمن بكتابة ما ينهى إلى الثقة فيه ، ويقول له عن الخبر الذي يتأرجح بين الصحة والشك : (جحفله أو جعفل به) (١٣) وكان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يشيان عليه .

والكلام عن تقوى الرجل وصلاحه مستمد من شهادة الحال وانصرافه بكليته إلى العلم والنظر فيه بمالا يخرج عن الدائرة التي رسمها لنفسه مرضاة لدينه ، ولولا الفترة البغدادية التي قربته من السلطان وجعلته عرضة للاحتكاك بغيره في دار الخلافة من علماء وشعراء وندامى وأصحاب مجالس الطرب ، وفيهم من وجد في الأصمعي غريباً ومنافساً في صيد الدراهم ومزاحماً مرموقاً في مجالس الرشيد - لولا هذه الفترة ما وجدنا خيراً بهم الأصمعي في دينه ومذهبه .

وإذ اتهمه الجاحظ بالمانوية فإنه لم يكن وحده الذي تصدى للأصمعي وغمره في دينه ، فلقد تعرض الحملة قاسية من الثالث الشعوى أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي نواس ، وإسحق بن إبراهيم الموصلي آثراً أن نبسط القول في هذه الحملة في حديثنا عن الخصومات بينه وبين العلماء فهي أشبه بأخبار الخصومات .

أما عن ملامحه الخلقية ، وحرصه على المال - وقد تعرض بسببها أيضاً للكثير من أقوال الخصوم فلم يكن - فيما أرى - بهذه البشاعة والمبالغة التي وُصِفَ بها : كان الأصمعي خفيف الظل ، سريع البديهة ، حلو المجالسة يرسل النادرة الفكاهة كأنه أعد مناسبها حتى تمثل بحديثه أبو منصور الثعالبي وهو يتمدح الأمير أبا الفضل فقال :

لك في الفضائل معجزات جمّة أبداً لغيرك في الورى لم تُسمع
بحران - بحرٌ في البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي

غير أنه لم يوهب نعمة الجلال ، ولكن في غير قبج أو دمامة ، وإلا ما خف على قلب الرشيد ووزرائه وهم وأمثا لهم يتطيرون من كل قبج وإنك لتدرك ظرفه ، وخفة روحه في هذا الخبر الذى أعد للتدليل على قبجه ، ويحكيه الأصمعى بنفسه فيقول :

(دخلت على جعفر بن يحيى بن خالد يوماً ، فقال لى : يا أصمعى ، هل لك من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟ قلت : جارية للمهنة قال فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة قلت : إننى محتاج إلى ذلك ، فأمر بإخراج جارية إلى مجلسه ، فخرجت جارية في غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف والمقال ، فقال لها : وهبتك لهذا ، وقال : يا أصمعى خذها ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيدى ، تدفعنى إلى هذا الشيخ مع ما أرى من سماجته وقبح منظره وجزعت جزعاً شديداً ، فقال : يا أصمعى ، هل لك أن أعوضك عنها بألف دينار ؟ قلت : ما أكره ذلك ، فأمر لى بألف دينار ودخلت الجارية ، فقال يا أصمعى : إني أنكرت من هذه الجارية أمراً ، فأردت عقوبتها بك ، ثم رحمتها منك قلت : أيها الأمير ، مهلاً ، فهلا أعلمتنى قبل ذلك فأبى لم آتكن حتى سرحت لحيتى ، وأصلحت عمتى ، ولو عرفت الخبر لصرت على هيئة خلقتى ، فوالله لو رأتنى كذلك ما عاودت شيئاً تنكره منها أبداً ما بقيت) (١٤) .

ومن القصة ندرك ملامحه الخلقية وظرفه معاً ، وكأنها أعدت لهذا الغرض ، فحققت سببها ، واحتفظت لأشخاصها بدلالة مميزاتهم .

ويقولون عن الأصمعى : إنه كان بجليلاً ممسكاً ، والأخبار في هذا كثيرة ، فضلاً عن شهادة الحال ، والوصف الذى وصفه به جعفر بن يحيى وقد عزم على منحه مكافأة ثم أحجم عن ذلك - دليل آخر على بخل الأصمعى .

وفي خبر آخر نرى الأصمعى نفسه يتهدد ضيوفه ، وقد أعد لهم كلباً ضارياً ، ولوح لهم بهراوة غليظة من خشب صلب ، قد شُدَّت بالجلد من أحد طرفيها فإذا كان في هذا كفاية لصرف الضيفان فقد حقق بذلك رغبته ، وإلا ففي الحيلة منجاة منهم باختلاق المعاذير والشكوى من الزمان وينسب إليه في هذا قوله :

أعددتُ للضيفان كلباً ضارباً وهراوة مجلوزة من أرزن
ومعاذراً كذباً - ووجهاً بأسراً وتشاكياً عض الزمان الألزن

وشذاة مرهوب الأذى قاذورة خشن جوانبه دلوظ ضيزن^(١٥)
وبكف محبوبك اليدين عن العلا والباع مسود الذراع مقحزن
وتجنبا لهم الذنوب وألتقى بغليظ جلد الوجنتين عشوزن^(١٦)
وكان الجاحظ ممن أشاع البخل عليه وغمزه به : ذكره مع البخلاء وخصّ خبره بالتلوين
والتهكم قال : (شهدت الأصمعي يوماً وقد أقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم وعما يأكلون
ويشربون ، فأقبل على الذي عن يمينه فقال : أبا فلان ، ما إدامك قال : اللحم ، قال :
أكل يوم لحم قال : نعم ، قال : وفيه الصفراء والبيضاء والخمراء والكدراء والحامضة والحلوة
والمزة قال : نعم ، قال : بش العيش هذا ليس هذا عيش آل الخطاب : كان عمر بن
الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم كُمدْمِنُ الخمر
ثم سأل الذي يليه قال : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : الإدام الكثيرة والألوان الطيبة قال :
أفى إدامك سمن قال : نعم ، قال : فتجمع السمن والسمن على مائدة قال : نعم ، قال :
ليس هذا عيش آل الخطاب : كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ،
وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعام كدورها في قدر واحدة ، وقال : إن العرب لو أكلت هذا
لقتلت بعضهم بعضاً .

ثم يقبل على ثالث فيقول : أبا فلان ، ما إدامك ؟ قال : اللحم السمين والجداء
الرضع ، قال : فتأكله بالحواري ؟ قال : نعم ، قال : ليس هذا عيش آل الخطاب : كان
ابن الخطاب يضرب على هذا أو ما سمعته يقول : أتروني لا أعرف الطعام الطيب لباب البر
بصغار المعزى ألا تراه يتقى من أكله وتتحل معرفته .

ثم يقبل على الذي يليه فيقول : ما إدامك ؟ فيقول : أكثر ما نأكل لحوم الجوزور ، وتتخذ
منها القلايا ، ونجعل بعضه شواء ، قال : أفتأكل من أكبادها وأسمنها وتتخذ لك الصباغ
قال : نعم . قال : ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما
سمعته يقول : أتروني لا أقدر أن أتخذ أكباداً وأفلاذاً وصلائقاً وصناباً ألا تراه كيف ينكر أكله
ويستحسن معرفته .

ثم يقول للذي يليه : أبا فلان ، ما إدامك ؟ ، فيقول : الشبارقات والأخبصة

(١٥) دلوظ ضيزن : مدافع في الصدر .

(١٦) البيان والتبيين ٣ : ٢٥ ط السندوي ، و ٣ : ٧٩ ط عبد السلام هارون ، والشعر لوير بن معاوية الأسدي

والفالودجات ، قال : طعام العجم وعيش كسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ، حتى أتى على آخرهم ، كل ذلك يقول : بشس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب ، وكان ابن الخطاب يضرب على هذا .

فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم فقال يا أبا سعيد ، ما إدامك ؟ قال : يوماً لبن ، ويوما زيت ، ويوما سمن ، ويوما تمر ، ويوما جبن ، ويوما قفار ، ويوما لحم . عيش آل الخطاب^(١٧) .

وفي خبر آخر يذكر الجاحظ الأصمعي فيخرجه عن حلمه ، ويهر سائله الذي جاء يستقرضه قائلاً ، أتدري ما تريد بشيخك ؟ إنما تريد أن تفقره ، فإذا أفقرته فقد قتلت ، وقد تعلم ما جاء في قتل المؤمن !

وربما لاحظ الرشيد عليه بخله وزهده في الطعام وتقديره على نفسه ، فكان يكافئه على بعض ملحه ونوادره بالغذاء والفالودج ؛ كما هي الحال عندما أنشده شعرا المزرد أخى الشماخ . ومع أن الأصمعي يقول عن نفسه (وصلت بالملح والنوادر) وسبق أن رأيناه يحصل في ليلة واحدة على تسع وخمسين ألفاً من هارون والفضل بن يحيى ، وعلى أكثر من خمسمائة ألف درهم من جعفر^(١٨) - كان يتعوذ من الاستقراض والاستفراض ، واتفق أن استقرض منه أحد أصدقائه بعض المال ، فسأله الأصمعي أن يسكن قلبه برهن يساوى ضعف ما طلب ! فقال له : يا أبا سعيد ، أما تتق بي ؟ قال : بلى ، وإن خليل الله إبراهيم كان واثقاً بربه وقال : (ولكن ليطمئن قلبي)^(١٩) .

ومما لا شك فيه أن الأصمعي كان يستهويه المال ، وتحتل الدراهم كل يقظته وانتباهه ، قال : كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحق بن إبراهيم الموصلي ، فقال الرشيد : أنشدني من شعرك شيئاً ، فأنشده :

وأمره بالبخل قلت لها اقصرى فليس إلى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الجواد - ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليل
ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا قال شيئاً أن يكون يُنبيل

(١٧) البخلاء بتحقيق الدكتور محمد طه الحاجري ١٨٥ ، ١٨٦ .

(١٨) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

(١٩) المستطرف ١ : ٨٣ .

فعلى فعال المكرّين تَجَمُّلاً وما لى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل
فقال الرشيد لحاجبه : أعطه عشرين ألفاً ، ثم قال : لله أبيات تأتينا بها يا إسحق ما أتقن
أصولها وأبين فصولها وأقل فضولها فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أقبل منها درهماً ، قال : ولم ؟
قال : لأن كلامك خير من شعري قال يا فضل : ادفع إليه عشرين ألفاً أخرى قال
الأصمعي : فعلمت أنه أصيد منى لدراهم الملوك^(٢٠) .
وهكذا يتنبه الأصمعي أول ما يتنبه في هذه القصة إلى الدراهم وحدها لا بعينه وجه
الجمال في الشعر ، ولا بديهة إسحق في رده على الرشيد ، وإنما بنفس على إسحق صيدها من
يد الخليفة .

وكان إسحق بن إبراهيم الموصلي من جملة الذين أشاعوا البخل على الأصمعي ونَفَسَ عليه
بدوره مكانته لدى الرشيد ، فرماه لديه بالبخل ، وبيّن له أن الصنعة لا تزكو عنده ، ولكن
هل كان هذا رأى إسحق في الأصمعي أو هو رأى أوجدته المنافسة وأملته حياة القصور لقد
تلمذ إسحق لأبي سعيد ، وأفاد منه ، وحسن رأيه فيه ، فقال في يوم : (عجائب الدنيا
معروفة معدودة منها الأصمعي)^(٢١) وقال في يوم آخر : (لم أر الأصمعي يدعى شيئاً من العلم
فيكون أحد أعلم به منه)^(٢٢) .

ولنا أن نأخذ مرويات الجاحظ عن الأصمعي على أنها سرد أدبي طريف فكه ، فهذه
طريقة من طرق الجاحظ ومقدرة فذة عنده يضرب بها على وترين : فهو ينال من الأصمعي لما
بينها من اختلاف في المذهب ، والجاحظ في نظر صاحبه قَدَرِي . ومن ناحية أخرى يختلفان
في الطبع . فالأصمعي متمزمت متحرج ، والجاحظ أديب ساخر فكه يثير حفيظة صاحبه بمثل
هذه النوادر وحكايات البخلاء ، ويأخذ في تلويحها حتى تبدو زاهية مثيرة لا تترك سامعها أو
قارئها دون أن تنتزع منه الضحكات .

والجاحظ لم يكتب كتاب البخلاء ؛ ليعالج ظاهرة شاعت في البصرة بعد أن تعدد تجارها
وأخذت المعاملات المالية جانباً هاماً من حياتها الاجتماعية ، ولكن كان كتاب البخلاء قبل كل
شيء أثراً أدبياً فنياً عمد إلى هذه الناحية من التأليف ؛ ليقدم قضية الأدب ، فكان على

(٢٠) المزم ٢ : ٤٠٤ .

(٢١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

الجاحظ أن يتناول الأصمعي وغير الأصمعي من الذين شاعت عليهم صفة البخل ، ثم يحكى أخبارهم على أنها آثار أدبية تخضع لما يخضع له الفن من التلوين والصقل والاتساع ، والجاحظ لا ينسب لنفسه العصمة ، ولا يعد بالصدق والتزام الحق على طول الخط ، ولكنه فنان يعترف بالتوليد والخلق في مقدمة كتاب البخلاء وفي نصوص أخرى أورد بعضها ، وعلق عليها الدكتور محمد طه الجاجري في المقدمة التي قدم بها كتاب الجاحظ .

وعلى كل حال فلقد كان الأصمعي حريصاً على المال حتى لا يريق ماء وجهه في طلب أو مسألة ، والرجل كما رأينا - بالرغم من رحلاته وسفرائه الطويلة ووجود الفرصة سانحة ؛ ليكسب من وراء المنافسات الأدبية التي كان فيها من الأفضاز - لم يذهب إلى هذه الناحية في طلب المغام ، ولو أراد ذلك لوجدها عند المأمون الذي ألح في طلبه فلم يستجب له . وتعلل بالمرض والشيخوخة ، وكان المأمون بعد هذا يرسل إليه بالأسئلة ويتلقى إجابته عليها دون أن يفقد الأمل في لقائه يوماً ، وكان يمتنى نفسه وأصحابه بهذا اللقاء ويقول لهم : (كأني وقد طلع عليكم الأصمعي) وقال يوماً ليحيى بن أكرم : (وددت أني وجدت رجلاً مثل الأصمعي ممن عرف أخبار العرب وأيامها وأشعارها ، فيصحبني كما صحب الأصمعي الرشيد) (٢٢١) .

كان الأصمعي يستطيع أن يجد عند هذا الخليفة الشاب متسعاً من رزق ، وبحبوحة من عيش ، ولكن الأصمعي كان زاهداً أكثر منه بخيلاً ، وناسكاً قليل الاهتمام بحياة الترف ، راضياً من الدنيا بصورها المتواضعة ، فلم ينبج من ألسنة الناس ، واتخذوا من مسلكه هذا ذريعة لإشاعة الشح والبخل عليه : رثى ركباً حماراً في أزقة البصرة فقيل له : أبعد براذين الخلفاء صرت تركب هذا الحمار ؟ فقال :

ولما أبت إلا طراقاً بوردها وتكديرها الشرب الذي كان صافيا
شربنا برنق من هواها مكدر وليس يعاف الرنق من كان صاديا
هذا - وأملك ديني أحب إلي من ذاك مع فقده .

وهذه الجملة الأخيرة بمثابة تصريح يعطى أدلة ظنية على أن بعده عن قصر الخلافة ، وتعلله لكيلا يصاحب المأمون - إنما كان نوعاً من النسك والتقي .